من سير
أعلام الشهداء
١٧

الشيخ المجاهد
رحمه الله

مجلس شورى المجاهدين في العراق

بسم الله الرحمن الرحيم

(الشّيخ المُجاهد)

هو الشّيخُ المُجرّب، والأسَد المحنّك، والأبُ الحَنون، والصّديقُ الرّفيق، والسّهلُ الهيّن المُتواضع، أبو حمزةَ الشّاميّ.

من مدينة حلَب، هاجَر أبوهُ من تُركيا إبّان الاضطهاد الدّيني أيام الهالك "كمال أتاتورك"، ولذا كانَ يُتْقن التّركيّة لُغَة أبيه، ذاكَ الجَبل الذي غَرس في نفس ابْنه – كما حدثني هو – حُبّ الدّين وأهله، وقيَم الإباء والشّموخ، وأهمّ شيْء عَشقه؛ السّلاحَ والقَنْص.

حدّثني أنّ أباه لّما بَلغَ به الكبَر عتيّاً، أراد أبناؤه أنْ يروِّحوا عنهُ بعْض الشّيء، فأخَذوه في نُزهة صيْد لما يعلموا عنهُ من سابق عهْده بهذا الأمر، فلمّا رأى الشّبابَ يتبارَون أمامَ الهدف، قال لأحدهم أعطني بُندقيتك، فضحك الشّاب من الشّيخ، وحتّى ابنُه ما أحْسَن الظّن بأبيه، فظنّهُ قد نَسيَ ما شاخَ عليه، وكانَ أمامَ الشّيخ عُلبةٌ معدنيّة، فقال لابنه ألْقها في الهواء، وإذا بالشّيخ وكأنّه عاد ابنَ العشْرين رَبيعاً يُسدّد بخفّة ورشاقة على العُلبة ليُصيبَ كَبدها، ويُسلّم البُنْدقية لولده تاركاً الشّباب في دَهْشة لما رأوا، فعنْد هذا الوالد وبَيْن يَديْه نَشأ شَيخُنا، وعلى يَديْه تَدرّب على السّلاح بكافّة أصْنافه وخاصّة الخفيفَ منهُ، والّذي ما خَلا قطّ منهُ بيتهم، وعلى حدّ تَعبير أبي حمزة حتّى في أحْلَك المحَن أيّام أحداث حَماه وحَلب، تلْك الأحداثُ الأليمةُ، والّتي شاءَ طواغيتُ العَرَب أنْ يسْكُبوا عليها النّسيان، نسْيان الحقْد الباطني العَلَويّ ضدّ أهل السّنة، نسيانَ الذّل والمَهانة، وفَقْد الأهل والولد.

هذا ومازال أبطالُ القصّة يَعيشُون بَيْننا أمثالُ أبي حَمزة وغيرهم في سُجون الطّاغية المُتجبّر الهالك "حافظْ النّعجة"، ومنْ بَعده عدوّ الله ابنُه "بشّار".

وعلى ذكْر الأخوة في سُجون الطّاغية الباطنيّ النُّصيري، أجدُ من الأمانة أنْ أذكُرَ قصّةً حدَثتْ مع أخي أبي مُحمّد المصْري، شهيدُ عَيْن الحُلْوة، ومعَ أخي أبي صالح الأسير فكّ اللهُ أسْره؛ وخُلاصَة الأمر أنّه لما سُجن الأخَوين ومَعهُما مجموعةٌ من الأخْوة في قَضيّة تتعلّقُ بعمل

جهاديّ ضدّ قطْعان اليهود بالأردنّ، أدْخَلوا أبا صالح خطأً على مجْموعة منَ الأشْــباح، في مكان ما يصعُبُ وصْفه من هَول الصّدمة، المُهم مكانٌ ما وجَد فيه أشْباهَ بَــشَر، وأناســاً يجلسونَ القُرفُصاء ليسَ عليْهم إلا ما يَستُر سَوْءهم، شُعورٌ طويلةٌ جداً، وأظافرُ كأنّها مخالبُ وحْش، ورائحةُ الجيَف تَفُوح من كلّ شيْء، وصَمْتٌ مُطبق، ورجُلٌ بسلاح وبيَده سَــوْط يجْلسُ أمامَهم لكنّه بعيدٌ عنْهُم، وحتّى لا يتأذّى بالرّائحة، وأدْخَلوا صاحبي على هذا المكان.

قال: "فلمّا رأيتُهم، سَقَط فؤادي في قدَميّ، وشَعرتُ بخَوف خَلَع أطْــرافي مــنْ مَكانهــا وأجْلَسوني بجانب أحَدهم".

فاسْتَرقْتُ الطّرفَ وحاوَلْتُ أن أُكلّم أحَدَهُم، فما منْ مُجيب، وحاولْتُ أُخْرى فمــا مــنْ مُجيب، اللّهم إلا دُموعٌ تَحجّرتْ تماماً كَتحجُّر أطْرافهم، كلّ شَيْء ساكنٌ صامتْ.

وبعْدَ عدّة ساعات نادَوا عَليه وأخْرَجُوه، وفَهم بَعْدها أنّه دَخَل بالخطأ، وأنّ مــارآهُ لــيْسَ مَنْظراً منْ أهوال يوم القيامة، وأنّه حقاً لم يَكُن بغَيبوبة أو كابوس مُؤلم مُزْعج، ولكنْ ما رآه كانوا أخوةٌ لَهُ يوماً ما منَ الدّهْر مُنْذ أكثَرَ منْ عشْرين سَنَةً قالوا (لاإلــه إلا الله) في حَمــاه وغيرها، ومنْ ساعَتها إلى يَومنا هذا، وهُم في وَضْعهم الذي رآه، لا كَــلامْ لا شَــيْءَ، لا شَمْس لا لا لا...

والثّانية أنّ أخي أبا مُحمّد حدّثني: قال "لمّا دَخَلْت السّجن كُنْت مازلْتُ غَبيّاً!، وحقّاً أحْمقاً جاهلاً"، قال "أذّن للفَجْر، فانْتَظرْت حتى كادَتْ الشّمْس أنْ تَخرُج فطَرقْتُ الباب"، وأخَذَ صاحبي نَفساً طَويلاً أيْ شَهْقة مؤلمةً قائلاً "لا أدْري أطَرَقْتُ بابَ السّجْن أمْ بابَ الجحــيم، وعلى الفَوْر جاءَت كلابُهم منْ كُل حَدَب وصَوْب يتعجّبون مــنْ ذاكَ الكــائن الغَريــب والمَخلوق الفَريد الذي استطاعَ أنْ يَطْرُق بابَ السّجن دونَ أنْ يُفتَح له وقَبْل ميعاده"، قالوا له" مالَكْ؟ وقبل أن يُعطوه الجَزاء، قالَ المسكين: "صلاةُ الفجْر"، فَــضحكوا وضَــحكُوا ثم أمسَك به جبّارُهم العَنيد ورفَع صَوتَه النّشاز قائلاً له وعُذراً "يا ابْنَ الكَلْب، صَلاة الفجْر آيه إحْنا كُفّار كُفّار فاهم يَعني إيه إحنا كُفّار"، طبْعا بلهجَتهم العامّية.

ثُمّ أخَذ عدوّ الله يَضْرب أخي رحمَه الله على أُذنه حتّى سالَ الدّم غَزيراً منْها، ومن كثير من جسْمه ثمّ تَركوه جُثّة هامدةً وأنْصرَفوا يَضْحكون. هذا هُوَ نظامُ "البعْث"، وإلى يومنا هـذا وحتى لا يَظنّ أحدٌ خَيراً بعدوّ الله "بَشّار" فهُو طاغيةٌ بنُ طاغية.

وعَودةٌ إلى شَيخنا أبي حمزةَ، فَقدْ ساقَني ذكْرُ أنّه شارَك في أحداث حماة، مأساةَ إخوانه وإلى يومنا هذا في سجون الطّواغيت. وأبو حَمْزة نَفسُه خَبر هذا العَذاب لكنْ في قضيّة بَسيطَة جداً مَكثَ عليها في سُجونهم حيناً منَ الدّهر.

وكُنْت أجْلس في أثناء حرْبنا في الفلّوجة الثّانية معَ الشّيخ، وأطْلُب منْه أن يُحدّثني عن الأحداث في حلَب وحَماة، والحمْدُ لله سَردَها لي منْ أوّلها إلى قَبْل نهايتها، ثُمّ في الأخير قال لي: "قرأْتَ كتابَ التّجربة السّورية لأبي مُصْعب السّوري؟"، قُلت "تقريباً نعَم الطّبعة القديمة المُختصرةَ قرأتُها، والجديدةُ ليسَ كلّها"، قال: "عُموماً، الرّجُل أنْصَف في هذا الكتاب، وخَيرُ مَنْ كَتب في هذا الموضوع، وهذه شَهادةُ شاهد على عَصْر الكتاب".

ولّما جاءَتْ دَوْلة الطّالبان هاجَر شَيخُنا إليها بحيَل وحيَل، حيثُ أنّه مَمْنوعٌ منَ السّفر، وهُناكَ قاتَل إلى جوار إخوانه كلاً منَ التّحالُف الشّمالي والشّيعة المَلاعين في "باميان" وغيرها. وهُوَ الشّيخُ الكبير، فسَكَب بعطْفه الحَنان على الشّباب فأحبّوه، ورَأوا فيْه الأبَ والأخَ الكَبيْر والصّديق الوَفيّ، ولّما أنْهارَتْ دَوْلةُ الإسلام علـى أيـد الخوَنـة في حكومة الباكستان لا على أيْد الأمريكان فَحسْب، رَفَض وهُو العاشقُ للجهاد وأهْله العَوْدَة إلى سُوريا ولو بجَواز سَفر مزوّر كما عَرضَ عليه أحدُ أقاربه، بلْ رَحل شَيخُنا إلى ساحَة أُخرى منْ ساحات الجهاد، ذَهبَ إلى منْطقة شَمال العراق "كردستان" يُقاتل عَدوّ الله "الطالباني" وحزْبه الإلحاديّ المُجْرم، وأستمَرّ مَعهُم حتّى دُخول الأمْريكان.

ومنْ ثَمّ عاوَد جهادَ الأمْريكان، ولكن في الفلّوجة، والتي بها تَعرّفت على شَيْخنا، فَرأيْتُ شَيخاً عَجيباً، لا يَكلّ عن العَمل، لا في حَرّ الشّمْس ولا تَحْت وابل القَصْف.

فاقْتَربْتُ منه أكْثَر، فإذا به عسكريٌّ عَبْقري مُحنّك، فعَجبْت كيفَ أمثالي يكونُ لهُم رأيٌ في الحرْب وهذا الكنـزُ ليس فيها، فتم إلحاقه بمجْلس الشّورى العَسْكريّ.

وكانَ شيخُنا صفتُه الصّمت إلا إذا سُئل، فإذا تَكلّم تقطّرت خبْرتُه منْ بَيْن ثَناياه، وعَلمْت حقاً أنّ الرّجُل يَعشَق البارود طَيّبا. ثُمّ دارَت رُحى الحَرْب في الفلّوجة الثانية، وكانَ نَصيبُ شَيخنا إلى جواري مَع زُمرة من الأشاوس في حيّ "نزّال"، وهُناك كانَ عاشقُ القّناصة لا يُفارق مَحْبوبَته، فَهي "دراغانوف" روسية الصّنع، منْظارُها مُصفّر جَيّدا، يتَنقّل بها منْ سَطْح إلى آخرَ لعلّه يَصْطادُ جُرذوناً منَ الأمريكان.

ثمّ اشْتَدّت رَحا الحرْب أكْثَر و أكثَر وتمّ اقْتحام نَزّال منْ قبَل العَدوّ، وأيْضاً انْحَزْتُ معَ أبي حمزةَ وعلى الرّغم أنَ الرّجُل كانَ في الخامسَة والخَمْسين منَ العُمْر، إلاّ أنّه كانَ يَقْفز منْ فَوْق الجُدْران منْ سُور إلى سُور، ورأيْتُ رَشاقَتهُ وخفّته، قُلْت صَدَق القائل "جَوارحُ حَفظْناها في الصّغَر فحَفظَتنا في الكبَر"؛ وإليكَ يا أخي لَقْطةً منْ لَقطات العزّ والجهاد مع شَيْخنا.

فَقدْ انْحاز هُوَ ومجموعةٌ منَ الأخوة إلى أحَد البُيوت عَلى حَسْب الخُطّة المرْسُومة لذلك وكانوا بالطّابق الثّاني، وأتّفق هوَ و أبو جَعْفر على أمْر؛ أنّه إذا دَخل الأمريكان يُفتّشونَ البَيْت لا يَرمي كلّ الأخوة حتّى لا تُسْتَهلك كمّيةٌ كَبيرةٌ منَ الذّخيرة في غَيْر مَوْضعها المُناسب، وحتّى لا يَرْمي الأخْوةُ بَعضَهُم البَعْض، وخاصّة إذا تقدّم المُجاهدون نَحو العدوّ.

ولَمْ يَنْتهوا بعدُ منْ كلامهم، حتّ جاءَ الأمريكانُ إلى هذا البَيت وصَعَد جُنْديّ إلى الطّابق العُلْويّ لتَفْتيشه يَتْبعُه قطعانُ الجرذان، فما أنْ رأى أبو حمزةَ عَدوّ الله حتّى أمْطَره بوابل سَقطَ إثْرها أمامَه كأنّه عُذْرة سَقطَت في بئْر.

ثمّ تَقدّم هُو وأبو جَعْفر وأمْطروا قَطيع الجُرذان خَلفَه بوابل من الرّصاص فَفرّوا بجراحهم، ولكنّ عَدوّ الله المَقْتول بَقيَ عنْد الأخوة.

غَنم أبو حمزةَ و الأخوة سلاحَهُ وجُعْبَته، لكنّ الشّيخَ آثَر أبا جَعْفر بالسّلاح، ومَضَتْ المَعْركةُ في هذا اليَوْم حاميَةً منْ بَيْت إلى بَيْت، حتّى عَلا شَيْخُنا أبو حمزةَ سَطْح أحَد البُيوت ليَعْبُر منْه إلى بيت آخَر، فكان لقائه مع قدّر الله، حيثُ التقطّه قَنّاصٌ أمريكيّ يحتلّ سَطْح بيت مُجاور أعلى منه فترجّل الشّيخُ في الحال.

وحّزن الجَميعُ لفَقْده، فَقدْ كانَ أبو حَمْزةَ وكان، لكنّ الظّرْفَ والوَقْت لا مجال فيه للبُكـــاء ولا الأحزان، فالحَرْبُ تَطْحنُ الشّبابَ طَحْنا، ومَضى الشّبابُ تاركينَ خَلْفهُم الشَيخَ والغُصّة في حُلوقهم، لكنّ هذا كانَ هيّناً إذ قُورن بما الذي نَكتَ في قَلْبي حُرْقةً وحَسْرة وإلى يومنـــا هذا، وأكيدٌ ستَمُوت مَعي وحَتى أُحاججَ أمّتي بعُلمائها يَومَ القيامة.

فقَد استَقرّ بنا الحالُ في بيت آخَر مَع مجمُوعة منْ أفاضل الأخوة وأرْسلْنا المُجاهدَ أبا الــزّبير اللّيبي إلى جسّد الشّيخ ليُحاولَ دَفْنها لكنّ الرّجُل وبشقّ الأنْفُس استَطاعَ فَقطْ أنْ يَتأكّد منْ وفاة الشّيخ ويأتينا ببَعْض أغراضه الشّخصيّة التي كانَتْ في جَيْبيه. على أمَل أنْ نَعود إليه مرّة أُخْرى رَيْثما تَتحسّنُ الأحوال، لكنّها ساءَتْ ولا حول ولا قوّة إلا بالله، فَقدْ جاءَ القنّاصَــة إلى رأس الفَرْع الذي يَفْصلُ بيْنَ بَيتَيْنا، مع دبّابة تحصّنتْ في نَفْس المنْطقة أيضاً فما اســتَطعْنا إليه سبيلا؛ وبقي هكذا عدّة أيّام ونَحْنُ نَنْظر إليْه لا نَسْتطيعُ أنْ نُواريَ أخانا، تأكُلنا الحَسْرةُ ويَقْطَع أكبادَنا الألم، ونَبْكي على ما آلتْ إليه الأحوالُ بخُذْلان الأمّة.

وحينئذ كَتَبْتُ قَصيدتي "المحْنة"، أشَرْتُ في بَعْض أبياها إلى قصّة الجُثّة، ثُمّ أرْدَفتُها بقــصيدة عنْ أخي وشَيخي أبي حَمْزةَ وكانَتْ كُنْيته الحقيقيَة "أبو عبدو":

لَهفـــي عَليْـــك أبـــا عَبـــدو بَطـــلٌ مُجـــربٌ يَعْـــدو
عنْـــد الــــشّدائـد ألـــفٌ لله دَرّك ... جَـــــــــــــدُّ
قَعـــد الـــشّبابُ و قُمْــتَ بواجـــب الـــدّين تَجْــدّ
كُنْـــت المُعلّـــم والمُربّـــي أبـــاً حَنُونـــاً.. لا يَــشُدّ
يَرْقـــى الـــشّريفُ لحَتْفـــه والعَبْـــدُ للحَـــضيض يَعْــدو
النّـــاسُ تُبْعـــــثُ جيفَـــةً والمـــسْكُ طيبُـــك تَغْـــدو
الله يَرفـــــعُ قَـــــدْرَك كَمـــا رَفعْـــت الـــدّين جـــدُّ

وكتبــــــه

أبو إسماعيل المهاجر